

القومة الاصحابية في العالم

الاِسْلَامُ أَكْثَرُ جَمَاعَةِ الْأَنْجُونَ وَوَحْدَةُ الْعَقْدِيَّةِ

لأستاذ عبد الرحيم المساجع

من علماء جامعة الأزهر

ويمكن أن نعبر عن هذا الامتداد النادر بأكثر من طريقة فنقول : إن الاسلام يمتد في قوس محدد من بكين الى كازان الى بلفراد في الشمال ، او في قاطع من فرغانة الى غانة – كما كان يقول مؤرخو الاسلام – او في قاطع آخر من جبل طارق الاطلس الى ستفافورة جبل طارق الهاديء ، او من مالاجا بالاندلس الى ملقا بالملاتي ، الى قبال المورو بالفلبين ، كذلك يمكن ان تحدد قاعدة العالم الاسلامي في الجنوب بمحور يمتد من قبائل السنغال ، حتى قبائل التاجال بالفلبين ، او من غينيا الى غينيا الجديدة ، اما الطول فدونك من الفولجا والدانوب حتى الزمبيزي والليمبوبو .

وذلك أبعاد لا تقل بحال عن نصف مساحة العالم القديم .

فالاسلام دين عالمي او كوكبي – بلا مراء – رغم ما يدعيه البعض من انه دين جزئي ، او اقليمي احياناً ، او من انه دين « افريقي » احياناً اخرى . اذ يوشك الا تكون هناك دولة في عالم اليوم ، لا يتمثل الاسلام فيها ولو ببضعة عشرات من الالاف كما في استراليا وغرب اوروبا مثلاً .

وبالعالم الاسلامي قabilيات بشريية فائقة المسلمين يمثلون تربينا 15 % من مجموع سكان هذا الكوكب الذي يبلغ اليوم قرابة 3300 مليون نسمة .

ان العالم الاسلامي يربض على الثروات المعدنية الهائلة ويترى على الكنوز الشمبلة ، ويملك من الغنوى البرتولية ، اجدادها نعم ، واكثرها ثراء وسخاء ، واقواها تدفنا ودفنا . ويتبوا استراتيجية هامة ، وبشكل من خريطة الدنيا حيزا جغرافيا عظيماً .

فالاطار الخارجي الاقصى للعالم الاسلامي يصل شمالا حتى اعلى الفولجا غير بعيد عن دائرة العرض 60 درجة شمالا ، ويترافق جنوبا حتى نهاية افريقيا عند الرأس على خط عرض 35 درجة جنوبا .

اما شرقا بغرب فنحن مع الاسلام من خط طول 120 درجة شرقا حيث الفلبين الى حوالي 20 درجة غربا ، عند الرأس الاخضر ، فهذه شقة تبلغ 95 درجة بالطول ، ونحو 140 درجة بالعرض اي حوالي ربیع وثلث محيط الارض على الترتيب ، او ما يعادل نصف دورة الليل والنهار ، ونصف دورة من دورة فصول السنة على التوالي .

ومحيط العالم المسلم يتحدد اساسا بنصف الكرة الشمالي اولا ، وبنصف الكرة القديم ثانيا ، فالاسلام جنوب خط الاستواء اطراف او اصياع ثانية وهو في العالم الجديد شظايا سديمية متطايرة .

نفسه : فاننا نجد انه دين العقيدة الحية الصحيحة التي جاءت وقت بلوغ العقل البشري طور رشده وكماله وتفتقه .

العقيدة التي تقر التوحيد الخالص والتزيء باللغ ارقى صورة واشكاله ، عقيدة ترفع من قيمة الانسان لانها تصله بالله الواحد الذي لا شريك له في ذاته ، ولا في صفاتاته ولا في افعاله « قل هو الله احد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا احد »

ولا تبيح تلك العقيدة الاسلامية للانسان ان يتعلق بالمخلوقات او يدعوه وبعد غير الخالق الذي ابدع وفق حكمته جميع ما يشاهد ويحس او يعترف بوجوده في هذا الكون الفسيح « اذا سألت فاسأل الله ، اذا استمعت فاستمعن بالله » ، والاسلام من جهة اخرى دين اجتماعي يراعي حاجة الانسانية ومصالحها الحيوية في حدود الحق والفضيلة والشرف وباعتبار هاتين الحقيقتين - التوحيد الخالص ، والاجتماعية - امكن للاسلام ان يقيس المجتمع على اسس القيم الاخلاقية العليا ، وان يرضي مطالب الروح والجسد ، حتى ترافقا في اعتدال ، وكونا حقيقة الانسان المذهب والمؤمن الكامل .

وبالجملة بين السمو الروحي والتهذيب الاجتماعي امكن للاسلام ان ينتشر في اركان الدنيا بالعدل والحق والاخلاق وسمو المباديء .

والاسلام وليد العقيدة الرائقة التي تطهر النفس وتذكي القلب وتربى الخلق وتغذى العقل وتوقف الفريزة عند حدتها ؛ وتعطى كل مطامع من مطامع الانسان معناه الذاتي وسيره الطبيعي .

والعقيدة الاسلامية : عقيدة استعماله من اخص خصائصها : انها تبعث في روح المؤمن بها الاحساس بالعزيمة من غير كبر ، وروح الثقة في غير افتخار ، وشعور الاطمئنان في غير توابل .

والعقيدة الاسلامية قوة لا تدانيها قوة في شد الاعصاب وشحن الدماء بالتضحيه والفداء ونكران الذات . وائر الایمان بالعقيدة السليمة يبرز بوضوح في الدعوات التي غيرت وجه التاريخ . لذا يعمد اصحاب الدعوات الى اختيار العناصر المشبعة بروح العقيدة ، ويصرفون نظرهم عن الكثرة فهم لا يرددون (الكل) بل يريدون (الكيف) .

وبعبارة اقرب وأوجز ، يمكن ان نقول : ان واحدا من كل ستة اشخاص يدين بالاسلام ومناطق العالم الاسلامي تعد - عند الباحثين والدارسين - من اقاليم النمو السكاني السريع .

فالعالم الاسلامي يشمل منطقة جغرافية تمتد من المحيط الباقي شرقا ، الى المحيط الاطلسي غربا ، مجتازة جاليات ودول اسلامية ذات طاقات بشرية واقتصادية وعقلية وحضارية لا حدود لها ، ومنطقة العالم الاسلامي تتميز بانها :

* تقع من العالم موقع الحزام من جسم الانسان ، بعيدة عن القطبين ، وسالمة من الاعاصير والطوفانات والثلوج والبراكين ، ولها دفعه معين يساعد على تنوع الحالات الزراعية وتناسل الحيوانات البرية .

* وأنها تمتلك من شواطئ البحار الكبيرة والصغيرة ما يمكنها من الاشراف على عدد كبير من اعظم موانئ العالم ، كما بها من الانهار وال蔓ابع مما يجعلها من اخصب المناطق واكتثرها ازدهارا ونموا .

* وان فيها من موارد الحضارة كالماء والنفط والمعادن والحاصلات الحيوانية والزراعية ما يمكنها من أغذية الحضارة الانسانية وزيادة الامن والرخاء .

* وبها من مواطن السياحة ما يرقى بها الى اعلى ما قدر من التقدم والسمو والمجد والسؤدد .

* وان التجانس المذهبي بين سكان العالم الاسلامي يجعل المنطقة في متناول عن الانشقاق المحظوظ في المذاهب الاخرى ، ويفرب بينها ويحفظ وحدتها ويزيدها تفاعلا وتفتحا وتقدما .

وتلك امور تجعل العالم المسلم قوة ايجابية مرهوبة الجانب ، مخطوبة الود ، يتهيب العدو باسها ، ويخشى سلطانها ، وتجعله ايضا مهبا للاسلام في بناء الحضارة الانسانية ، واعادة صنع الحياة ، وانقاد البشرية من الهوة السحيقة المتردية فيها ووهدة الفوضوية والاباحية والاستعمار والالحاد .

وإذا انتقلنا من الحديث عن الناحية الجغرافية والواقع ، وما لهما من خصائص ومميزات ، وما بهما من كنوز وخيرات ، ومن الحديث عن خصائص العالم الاسلامي التي يز بها غيره ، الى الحديث عن الاسلام

ذلك ان العقيدة هي الروح التي تحرك الجسد وتبعث فيه الحياة ، والرعييل الاول من المسلمين كانوا اساتذة الدنيا بقوة عقيدتهم وایمانهم بربهم . وقد لاقوا آلاما شديدة لو صبت على غيرهم لتغير موقفهم؛ ولكن الإيمان بالعقيدة حين يخالط قلب المسلم يجعله الى انسان فوق العادة .

فبلال الحبشي ، وعمار بن ياسر ، ومصعب بن عمير ، وصهيب الرومي . ضربوا الرقم القياسي في صلابة العقيدة وصدق النية وقوه الايمان . وهم الذين لم يدرسوها كتب الفلسفة ولم يقرأوا علوم اليونان والرومان . ولكنهم درسوا القرآن الكريم وتتلذذوا في مدرسة محمد بن عبد الله رسول الله الى الناس كافة .

وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد والمقداد بن الاسود وطارق بن زياد وموسى بن نصير قادوا الدنيا وفتحوا البلاد وهو الذين لم يدرسوا في الكليات ولم يقرأوا علوم اليونان والرومان . ولكنهم درسوا القرآن العظيم وتلذذوا في مدرسة محمد رسول الله عليه السلام .

فالإيمان بالعقيدة هو الجذوة التقدمة والقوة الخلاقية ، التي تكون النفوس وتشحذها بائل القيم وأسمائها ، وتبنيها على الحق والاباء والعزيمة والكرامة .
والاسلام : دين ومجتمع وحضارة :

دين : لانه عقيدة توحيد وتتنزيه لله – سبحانه وتعالى – تعتقد بها القلوب وتدين بها ، وتنطق بها الالسنة في كل صلاة وذكر ، وتتنزكى بها النفوس ، فتنجلي عنها كل شدة وبؤس .

مجتمع : لانه ليس طائفيا ولا عنصريا ، ولا متعصبا ولا جاهلا ، ولا جاما ولا خاما ولا يتوكى استعباد جنس لجنس ولا قوما لقوم ، ولا طائفة لطائفة ، « إنما المؤمنون أخوة ». « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهم » .

والفرد في المجتمع الاسلامي جزء من كل يكمله ويكتمل به ، ويعطيه وياخذ منه ، ويحميه ويحتفي به ، وليس في الاسلام انفصال بين مسؤولية الفرد نحو المجتمع ومسؤولية المجتمع نحو الفرد ، لأن هاتين المسؤوليتين هما اولى وسائل الاسلام في الاصلاح العام ، والاسلام من ناحية اخرى اعترف بالقيمة الذاتية للأفراد باعتبارهم مدينيين بوجودهم لله

ومسؤولين أمامه عن اعمالهم . « كل نفس بما كسبت رهينة ». « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، والاسلام الحنيف حينما جعل الفرد مسؤولا أمام الله عن اعماله والمسؤولية تقع عليه وحده الاسلام جعل ذلك ليرفع من قيمة الفرد الذاتية ويصل به الى اعمال الخير والدفع البناء وفي الوقت نفسه الفرد لبنة من لبنات المجتمع المسلم ، وعضو من اعضائه ، يعمل لصالح الجماعة ، والجماعة تسعى لخبر الفرد .
والاسلام لا يعترف بالقهرية التي يدمج بها الفرد في المجتمع قسرا ورغمما عنه كما في الشيوعية ، لأن الشيوعية من الوجهين العمليه والنظريه تستغنى عن الفرد ان لم يخدم غرض الدولة او ان لم يتبع طريقه الحزب دون نقاش .

فالاسلام دين اجتماعي يرقى بالمجتمع الى اسمى ما قدر من سلام ورحمة وتعاون وتكافل وتساند وتوادد « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » .

قال المستشرق الفرنسي (ماسينيون) : « ان لدى الاسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد في فكرة المساواة ، وذلك بفرض الزكاة التي يدفعها كل فرد لبيت المال . وهو يناهض الديون الربوية والضرائب غير المباشرة التي تفرض على الحاجات الاولية الضرورية ، ويقف في نفس الوقت الى جانب الملكية الفردية ورأس المال التجاري .

والاسلام ماض بدبيع من تعاون الشعب وتفاهمها ، وليس من مجتمع آخر له مثل ما للإسلام من ماض حافل بالنجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات .

وقال المؤرخ الانجليزي (توماس كارلайл) : « وفي الاسلام صفة اراها اشرف الصفات واعظمها ، وهي المساواة بين الناس ، وهذا يدل على صدق النظر وصواب الرأي ، والاسلام لم يقنع بجعل الصدقه سنة محبوبة بل جعلها فرضا على كل مسلم وجعلها قاعدة من قواعد الاسلام » .

وقال العلامة (ليود ورونس) : « ولقد وجدت في الاسلام حل المشكلتين اللتين تشغلان العالم طرأ ، الاولى قول القرءان « إنما المؤمنون اخوة » والثانية فرض الزكاة على كل ذي مال » .

وإذا كان المجتمع الإسلامي ، له من المميزات ما لا يتوفّر لغيره ، وله من التعاليم والقيم والأداب ما يسمح له أن تكون له فلسفة الخاصة بوجوده . فهل يمكن لحضارته أن تعود إلى اشراقتها من جديد فتنقد الإنسانية من هوة الفوضوية وتقشع عنها السحب الداكنة والاعاصير المقلقة ، وتزيل الاصفاد والقيود المحيطة بكل تقدم ، والمرعفلة للنهوض ، وتعيد للعالم الإنساني السلام الحقيقي والحق والعدل والشور والامن والاطمئنان ؟ .

ان تعاليم الإسلام الفراء صالحة لكل زمان ومكان، وفي الاصلاح الإسلامي من كليات وجزئيات ما هو كفيل بقيام مجتمع إنساني تسوده روح الصدق والمحبة والتعاون والبر والوفاء والأخلاق ، ولكن ذلك رهين برجوع المسلمين إلى منابع عزهم ومجدهم والتمسك بأسس القيم والأخلاق الإسلامية . والعمل بتلك القيم والاسترشاد بالتعاليم الحية النابضة بالسمو ، المليئة بالجذوات المتقدة التي لا يخبو ضوءها قال الدكتور جورج سارطون : « ان المسلمين يمكن ان يعودوا الى عظمتهم الماضية والى زعامة العالم السياسية والعلمية – كما كانوا من قبل – اذا عادوا الى فهم حقيقة الحياة في الإسلام والعلوم التي حرث الإسلام على الاخذ بها » .

وقال العلامة وأميري : « ان روح نظام المسلمين هو الدين ، والذي أحياهم هو الدين ، والذي يكفل سلامتهم في المستقبل هو الدين ليس الا » .

ويرى الدكتور فيليب حتى « ان الشرق الإسلامي هو اليوم في مطلع دور جديد في حياته العلمية ، كما انه في فجر طور جديد في حياته السياسية ، وهو دور يمكن ان نسميه : دور الابداع والابتكار ضمن اطار الميراث الخالد من القيم الدينية والادبية . ولنا ان نتمنى ان ابناء الثقافة الإسلامية على اختلاف بيئاتهم سيقومون بقطفهم في خدمة المدنية والانسانية؛ وبما يجعلهم خلفاء جديرين بالميراث الذي تركه لهم اجدادهم » .

آراء كوكبة من الباحثين وكبار المستشرقين فيها انصاف واعتراضات بقيم الإسلام ، وذلك حينما يكتتبون لمرضاه العلم في ذاته . وحين لا تقتادهم السطحة .

وحضارة : لانه متصل بشؤون الحياة في الحكم والفكر ، والاسلام قادر بطبيعته الذاتية على مواجهة تطور الازمان واختلاف البيئات والمجتمعات ، وله من القدرة والقوّة ما يمكنه من التبلور والتناسق بحيث لا يتوقف ولا يجمد ، ولا يتعارض مع طبائع الامم في حرکتها الداخلية المتداة عبر العصور .

والاسلام ينظر الى الحياة نظرة كاملة وشاملة ، ويندخل في جميع شؤونها السياسية والاجتماعية والاقتصادية بالإضافة الى انه دين يهتم بالجانب الروحي من الانسان ويريد منه ان يتحمل الخلافة في الارض بامانة وقوّة وحزم وعزّم . نادي الاسلام بالحرية والاخاء والمساواة ورسم وسائل تحقيقها ، واقام موازين الحق والانصاف والعدالة ودعا الى التعاون والتبادل والوحدة والالفة .

ويمكن ان نقول بعبارة اوجز : انه ما من شيء يهم الانسانية ويشغل بالها ، ويأخذ قسطا من عنانيتها الا وله في الاسلام هدى وبيان واهتمام .

وما من شيء يلامس حياة الناس او يعمقها الا وله في الاسلام عرق ينبض وأصل عريق .

ولقد اكتملت قوة الاسلام بوحدة العقيدة ، وجامعة اللغة العربية ، واشترك المجتمع في مظاهر العبادات والعادات والتقاليد زيادة على توحيد الاهداف والغايات من الحياة .

ونخلص من كل ما سبق : الى ان الاسلام دين عالمي . ولهذه العالمية كان الاسلام وما زال ملائما لجميع الاجناس البشرية ، وقد اثبت منذ ظهوره حتى اليوم انه الدين الذي يتلاءم مع كل عقل وتفكير ، ويعجاوب مع تطور الزمن .

وان آداب وتعاليم الاسلام كفيلة بان تجعل العالم الاسلامي في وضع يسمح له ان ينمی فلسنته الخاصة به ، المتميزة عما عادها والتي تبع من الفكر الاسلامي النبيل ، وتستمد عناصر وجودها من كتاب الله القرءان الكريم وسنة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام . وذلك دون ان يتبع المجتمع الاسلامي اي شكل من الاشكال التي يعافها الاسلام وتعجبها الفطرة الانسانية الصافية .

اذا اجتمعت كلمتهم في ظل العمل بالاسلام . كان ذلك خطرا على الاستعمار والاستعباد والظلم .

وعلى اي حال وسواء كان هذا او ذاك فان العالم العربي والاسلامي لا ينهض الا برسالته التي وكلها اليه رسول الانسانية محمد عليه الصلاة والسلام والايمان بها والاستماع في سبيلها ، وهي رسالة مشرقة قوية واضحة لم يعرف العالم رسالة اعدل منها ، ولا افضل ، ولا ايمن للبشرية منها .

وهي نفس الرسالة التي حملها المسلمين في فتوحاتهم الاولى ، والتي بلغوا بها ذروة ما قدر لهم من سرور ومجده وسلطان .

والدكتور سميث استاذ ورئيس قسم الديانات بكلية ووستر بولاية اوهايو يرى : « انه لو امكن اثارة التماسک الاسلامي في سبيل اغراض ايجابية وتكتيل الامم الاسلامية الكثيرة المختلفة في وحدة حية لامكن ان تصير هذه الوحدة قوة ايجابية في العالم » .

وكلام أولئك الانذار من ائمة البحث وكوكبة الاستشراق قد يكون انصافا ولعرضة العلم في ذاته بعيدا عن السطحية والاغراض التعصبية .

وقد يكون بمثابة التحذير لاقوام اوروبا الحاقدة على الاسلام والمسلمين . ليعرف الاوربيون ان المسلمين

